دموع
على المناديل
آية سكاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

دموعٌ على المناديل

:

من تأليف:

"آية سكاوي"

2025

إهداء:

أهدي هذا العمل المتواضع إلى أمي قرة عينـي
وإلى أختـي أمل التـي كانت منارة أمل لكتابة هذه
القصة وإلى أخواتـي رانية وأمينة..

آية سكاوي

في مدينة تفتقر إلى العدل، يوجد من يحتاج إلى هذه العدالة، زوج يعمل في بيع المناديل الورقية رغم حالته الصحية المزرية، إذ يعاني من مرض في قلبه.

يخرج الرجل كل صباح حاملا حقيبته يملأ صدره ثقة وأملا بغد أفضل يجوب الشوراع والعرق يتصبب من وجهه، وقد بان عليه التعب والجهد إلا أن عيناه تشرقان بوميض من الإرادة.. كل هذا من أجل تأمين لقمة العيش له ولزوجته فهي ربة بيت لكن أين البيت؟ هل يمكن لمأوى قصديري أن يكون بيتا لا أعتقد هذا يسعى الزوج وراء قوت يومه وكالعادة يتلقى كلمات لا تحتمل من المارة لكنه يتجلد. تارة أغرب عن وجهي!... وأخرى من المستحيل أن أقتني من رجل مثلك!! ... مسكين حاله كحال الغريب رغم أنه ليس بغريب لكن الناس يعتبرونه كذلك.

هبت أنفاس الشتاء القاسية تعصف بالأغصان كأنها زمهرير الغضب من قلب السماء.. لا يجد الزوجان ما يسدان به رمقهما، أو ما يدفئان به جسديهما.

رغم قساوة الأيام كان يراودهما الحنين لطفل ينير ظلمة حياتهما....
وبعد زمن ليس بطويل تحقق حلمهما حيث أضحت الزوجة حامل، ولوهلة سيطر عليهما شعور غريب ممزوج بفرح البشرى، وخوف من المجهول على اِبنهما الموعود.
مضت الأيام والأشهر بسرعة البرق، وضعت المرأة اِبنها أحمد، ضمته إلى صدرها فرأت وجهه مثل القمر ليلة البدر وبصحة جيدة.
لكن بعد أيام قليلة ساءت حالتها بسبب ضعف جسدها وأسلمت روحها إلى بارئها...
حزن الزوج كثيرا على فراق رفيقة دربه الغالية...
حمل فلذة كبده بين ذراعيه والدموع تنهمر من عينيه،
ورغم مرارة الألم وجد في صغيره الأمل،
فعاهده بالحماية والرعاية رغم الصعاب.

تربى الطفل يتيما والزوج حزينا، ولما صار عمر أحمد سبع سنوات ترعرع على حكاية والده عن أمه التي لم يعرفها وعلى إحتقار المارة واِنتقاداتهم حيث سأل أحمد والده ذات مرة بنبرة حزينة:« ماذا فعلنا لهؤلاء الناس؟؟ لما هم يكرهوننا»
أجاب الأب والدموع تغمر عيناه:« لا يابني! ماهذا الكلام!!... إنهم فقط ينزعجون أحيانا لكنهم طيبون»
يهز أحمد رأسه ويقول:« حسنا يا أبي لكن عدني بأن لا تتركني كما فعلت أمي»
الأب:« أعدك بذلك يا عزيزي فهل يعقل أن يتخلى المرأ عن روحه... بالمناسبة أنا أدخر القليل من المال لأنك يجب أن تلتحق بالمدرسة»
الإبن متفاجئا:« أحقا ما قلت يا أبي!؟..»
وبينما يتبادلان أطراف الحديث مر أمام عيني أحمد بائع المثلجات وذهب إليه وهو يحمل لفة من المناديل الورقية قائلا:« عمي هل يمكنك إعطائي واحدة؟؟»
وصرخ البائع في وجهه قائلا:« أغرب عني أيها الصغير!!»

حزن الصبي حزنا شديدا فأوى إلى فراشه وبكى مطولا حتى نام...

وفي الصباح اِستيقظ فوجد أمامه ما لم يكن يتخيله... محفظة مجهزة بالأدوات اللازمة للدراسة، ومئزر!

طار أحمد من الفرح، رغم هذا المئزر الزهيد الثمن، والمستلزمات ذات النوعية الرديئة، عانق والده بشدة لأنه بالرغم من الفقر والألم كان يبحث عن بصيص أمل لإسعاده.

اِتجه أحمد رفقه والده إلى مدرسة أحلامه، والبسمة لم تفارق محياه طوال مسيرهما، دخل المدرسة فوجدها أجمل مما كان يتخيل، اقترب من الذين في سنه محاورا إياهم لكنهم سخروا منه وذهبوا كنسمة سريعة لكنها مؤلمة ..

من جديد تقدم إليه أحدهم فظن لوهلة أنه سيكون صديقه لكنه استهزأ به قائلا:« ماذا تفعل هنا؟ هذا ليس مكانك! انصرف لبيع المناديل الورقية!»

صُدم أحمد بهذا الكلام حيث نزل كالصاعقة على قلبه الصغير، رن الجرس معلنا بداية الدوام، مضى أحمد متجاهلا ما حدث قبل قليل، جلس في مقعده، فرمقه الأولاد من جديد بنظرات اختقار بسبب ثيابه الرثة....

وفي هذه الآونة دخلت المعلمة فأشرق وجه أحمد من الفرح لأنه هذا سيكون بمثابة بذرة لحلمه المنتظر، قالت المعلمة:« صباح الخير يا أطفال!»

فردوا عليها التحية قالت:« الآن عرفونا على أنفسكم، وأوليائكم ومجال عملهم»

حان دور أحمد... انعقد لسانه فجأة، فكررت المعلمة السؤال بلطف، فأجابها بصوت خافت:« أنا أحمد، أبي يقوم ببيع المناديل الورقية» ثم صمت....

قالت:« ماذا عن أمك؟» اجابها والأسى يفيض من عينيه:« أمي فارقت الحياة عند ولادتي» فقالت:« رحمها الله يابني... ان احتجت المساعدة فلا تتردد في اخباري».

في هذه الآونة دق جرس الإستراحة اِستأنف التلاميذ دراستهم بعد الفراغ من ذلك، اتجه الأطفال إلى منازلهم بما فيهم أحمد الذي وجد والده في اِنتظاره بشوق كبير، مر زملاؤه فألقوا عليه كلمات جارحة قائلين:« مناديل ورقية..»
لكن أحمد اِزدادت عزيمته ولم يخجل من والده واضعا يده الصغيرة بيده قائلا:«جزاك الله خيرا يا والدي.. فحبك راسخ في أعماقي وسأظل على العهد.. رغم كل ما يواجهني من اِهانات لن أستكين! أو أذل نفسي.! بل سأجهر بالإفتخار بك بين زملائي... بالرغم من اِعتلال صحتك وبساطة عملك لم تتوانى يوماً عن السهر محاولا تلبية متطلباتي»
رق فؤاد الأب من كلمات ولده فإحتضنه بحرارة وقال:« أنا أيضا سأظل سندا لك لن أتخلى عنك أبدا... أنت يا صغيري قرة عيني فليس لي في هذه الحياة الفسيحة غيرك»

وبسبب اِنشغال أحمد في العمل لعدة أشهر لم يستعد للإمتحان المفاجئ، وبعد أن وزعت المعلمة الأوراق أغمض عينيه للحظة محاولا تجميع أفكاره...

لاحظت المعلمة الأمر وظلت تراقبه دون أن ينتبه لها أمسك أحمد قلمه وبدأ في الحل، وبعد فترة وجيزة أنهى الإمتحان وسلم الورقة مما فاجئ المعلمة بسرعة أداءه، غادر أحمد الفصل بهدوء وسكينة لم تكن من عادته، وكأنه يخلع عن كاهليه حملا ثقيلا.

اِنطلق إلى والده وبدأ يعاونه في عمله، جلسا معا لفترة ثما شرعا في التجول بين الأزقة ويملأ صوت صراخهما المفعمة بالفرح والبهجة البيوت كأنهما طائران يحلقان في السماء الصافية، لكن بعد لحظات من مشيهما شعر الأب بوجع في قلبه كأنه خنجر بارد يغرس فيه، لكنه تجاهل هذا، استمر في السير فإنتبه أحمد على تغير ملامح والده، فأخذه إلى المنزل وفي طرقيهما فوجئ أحمد برؤية والده يتقيأ قطرات من الدم!

هنا اِنتاب أحمد هلع شديد كان الأرض انشقت تحت قدميه الصغيرتين.

لكن الأب في محاولة يائسة للتخفيف من روعه، كذب عليه كذبة بيضاء قائلا له:« إن هذا ليس إلا شراب التوت محاولا إخفاء مرارة الواقع خلف ستار من الحنان»

وصل الأب إلى المنزل بوجه شاحب كالليمون، وكأنه كل قطرة دم قد هجرته، غطى نفسه واِنزوى في نوم عميق.

ظل أحمد بجوار والده وفيا لا يفارقه يرعاه بحب وقلق، وبعد مدة وضع أحمد يده الصغيرة على جبهة والده فصدم من الحرارة التي كانت تشتعل فيه، وبدأ الأب يرتعد كغصن في مواجهة الرياح العاتية ...

اِنتاب الخوف قلب أحمد الذي لم يعرف ماذا سيفعل، فقد واجه هذا الطفل الصغير مواقف أكبر منه.

بدأ أحمد يركض مسرعا بلا وجهة محددة تقوده غريزة البقاء حتى وجد نفسه أمام عيادة دخل إليها فوجد طبيب فتوسل إليه بصوت يملأه الخوف والرجاء:« من فضلك ساعدني!.. لا أريد أن أفقد أبي!»

طلب من الطبيب أن يهدأ وسأله عما حدث فأجابه أحمد بقلق:«أبي يحتاج إلى علاج عاجل تعال معي بسرعة!»

وافق الطبيب على الفور وذهب مع أحمد إلى المكان الذي أرشده إليه ففحص الأب وقال يجب نقله إلى المشفى!

وبعد فترة من العلاج تحسنت حالة الأب وكأن الحياة تدب فيه من جديد، ثم جاء الطبيب ليطمئن عليه وسأله عن حاله:« فأجاب الأب بضعف ولكن بإمتنان أحسن والحمدلله»

الطبيب الذي كانت كلماته حادة كالشفرة أعلن للحضور أن التحسن لن يكون سوى سحابة صيف عابرة وكان لا بد من التدخل الجراحي لأن صحة الأب ستتدهور شيئا فشيئا.

كان كلمت الطبيب بمثابة صدمة هائلة للأب الذي سأل عن تكلفة العلاج بصوت خافت ليأتيه الجواب صاعقا:« خمسة ملايين»

تجمد الأب وكأن أحدا ما صب عليه ثلجا باردا لدرجة أنه لم يستطع النطق بكلمة واحدة!

وبعد ثلاثة أيام خرج الأب من المشفى مع اِبنه أحمد الذي غاب عن المدرسة التي كانت بالنسبة له واحة للمعرفة ليتفرغ لرعاية والده.

كان أحمد يذهب إلى مكب النفايات يبحث فيها عن الطعام مثلما يبحث الطائر الجائع عن رزقه، فيجمع بعض بقايا الخضار والفواكه التي كانت في أعين الناس عبارة عن قمامة لكن أحمد يراها ككنز ثمين.

بعد أسبوع اِستعاد الأب عافيته وعاد أحمد إلى مدرسته وقلبه يرقص من السعادة.

كان ذلك اليوم يوم توزيع نتائج الإمتحان فكانت السعادة بادية على وجوه البعض، بينما كانت خيبة الأمل ترسم لوحات حزينة على وجوه البعض الآخر.

كانت دقات قلب احمد تتسارع كلما تقدمت المعلمة نحوه، لكنه لم يجروء على رفعه عينيه نحوها، خوفا من نظرة العتاب.

فأمرته المعلمة بالنظر إليها فقال بصوت مرتعش:« أنا آسف يا معلمتي لم أُحضر للإمتحان»

لكن المعلمة لم تشعر بالأسف بل شعرت بالفخر وقالت له:« على العكس يجب أن تفتخر بنفسك لأنك تحصلت على العلامة الكاملة!»

فكانت كلماتها بمثابة بمثابة بلسم يداوي جرحه ويغمر قلبه بالسعادة، على عكس زميله " كمال" الذي مان متأكدا من حصوله على العلامة الكاملة، نظر كمال إلى أحمد بغضب شديد وبنظرات تقول:« أنت لا تستحق تلك العلامة! بل أنا أحق بها!»

بعد ذلك ركض أحمد إلى والده وأراه النتيجة الممتازة، فغمرت الفرحة قلب الأب، واِفتخر بإبنه، وفي هذه اللحظة طلب أحمد من والده أن يرتاح في المنزل ليوم واحد وأن يحل محله في العمل، حرصا على وصية الطبيب.

لم يعترض الوالد على الأمر طالما أنه يوم واحد، غادر أحمد البيت مثل عصفور صغير يغرد فرحا بالنجاح وصل إلى مكانه المعتاد لبيع المناديل، فوجد كمال هناك بإنتظاره، وعندما ألقى أحمد التحية عليه، لم يتفوه بكلمة واحدة. بل بادر بهدوء وقلب قاسٍ إلى يكب زجاجة الماء التي كانت في يده على المناديل....

فأتلف بذلك مصدر رزق أحمد الوحيد! حالت الصدمة على وجه أحمد، وتحولت فرحته بالنجاح إلى حزن عميق... لم يستطع اِستيعاب ماحدث وبدأت دموعه تتساقط كقطرات من المطر وهمّ في البكاء بحرقة..

واِنحصر في الزواية محتارا، تائها في بحر من الهموم.

فجأة اِمتدت يد دافئة نحوه... نظر أحمد إلى اليد فوجد رجلا مألوف أمامه، حاول أحمد أن يتعرف على ملامح الرجل فعرفه!

إنه الطبيب نفسه الذي قد عالج والده، فسأله بحنان عن سبب حالته هذه.. فبدأ أحمد يسرد عليه ماحدث وعيناه تفيضان بالدمع، أنصت إليه الطبيب بإنتباه شديد، ثم طلب منه أن يتنظر في مكانه قائلا:« اِنتظرني هنا سأعود حالا!»

وبعد فترة وجيزة عاد الطبيب ومعه حزمة من المناديل ضعف ما أفسده كمال، فإندهش أحمد!

اِقترب الطبيب خطوة منه وأخذ من جيبه منديلا ومسح به دموع أحمد ثم قال له بكلمات دافئة:« لا أريد أن أرى هذه الدموع مرة أخرى، لا تدع اي شيء يحزنك بعد الآن» ثم عانقه بحنان بالغ وشعر أحمد بعطف وأمان لم يشعر مثلهما إلا من والده الحبيب، فبادله أحمد العناق بقوة وشعر أن الحياة لا تزال تحمل الخير، رغم قساوة بعض الناس.

عاد أحمد إلى عمله كالنحلة النشيطة بكل همة وحيوية، اِجتهد وعمل بجد واِصرار، حتى نال منه التعب وقدامه ما عادت تحملانه فعاد إلى بيته، فوجد والده غارقا في نوم هانئ، فتسلل بخفة من تحت الغطاء واِحتضنه ثم نام بجواره.

في الصباح الباكر.. مضى أحمد إلى مدرسته قاصدا " كمال" الذي كان سببا في حزنه، اقترب منه وقال له بكلمات قوية وثابتة:« لن أنسَ ما فعلته بالأمس ما حييت!»

تجاهل كمال كلام أحمد ومضى في طريقه غير مبال بما فعله.

ومع مرور الأيام وانتهاء العام الدراسي بتفوق أحمد بجدارة، اِستدعته المعلمة وقالت له بنبرة فخر:« لقد لاحظت قدرتك الكبيرة على التعلم وتفوقك الباهر ليس أنا فقط بل كل الأساتذة متفقون على هذا! لذا اِخترناك للمشاركة في مسابقة" نجوم العلوم الصغار"... فهل أنت موافق على خوض غمار هذا التحدي؟»

أجاب أحمد وعلامات السرور بادية على وجهه: نعم! من دواعي سروري»

ثم أردفت المعلمة قائلة:« إذن بعد أسبوع من الآن تعال هنا إلى المدرسة ونحن سنتكفل بتوصيلك إلى مكان المسابقة»

وافق أحمد من فوره وعاد إلى بيته واِستغل هذه المدة في الدراسة والمذاكرة

وحان اليوم الموعود الذي كان ينتظره أحمد بفارغ الصبر، شعر بالتوتر قليلا لأنه وجد الكثير من المتسابقين، فحاول الحفاظ على هدوئه قدر الإمكان.

بدأت المسابقة وأسئلتها تتوالى كالمطر الغزير والمسؤول يلقى السؤال تلوى الآخر، وأحمد يجيب عليها بكل دقة وتركيز، كان هناك تنافس كبير في الأرجاء...

بقي سؤال واحد فقط، سؤال الحسم الذي يحدد مصير المتسابقين ويحدد الفائز في هذه المسابقة!

وهذا السؤال أحسب ذهنيا مايلي:

3573810×5370712

بدأ أحد المتسابقين بإستخدام الآلة الحاسبة خفية، لكن أحمد بذكاء خارق أجاب قبل أن يكمل منافسه حتى بكتابة الأرقام، وكانت إجابته صحيحة!

فاز أحمد في المسابقة بجدارة، وصعد إلى منصة التكريم، وهو يشعر بالفخر والإنتصار، مدركا أن العمل الجاد والتوكل على الله هما مفتاح النجاح، وتحصل على مبلغ مالي متواضع إلا أنه يبدو ضئيلا مقارنة بمبلغ عملية والده الضرورية.

فقرر أحمد أن يحاول إدخار المال لإنقاذ حياة والده، ومع ذلك أصر الوالد على أن يستخدم أحمد هذا المال لشراء ما يحتاجه لنفسه، مؤكدا له أنه الأحق بذلك وبعد نقاش طويل ومستمر وافق أحمد أخيرا على طلب والده، فذهب واِشترى كتبا بسيطة ومخزونا من المناديل الورقية.

لطالما بكى أحمد على واقعه المرير، فلم يكن له رفيق ولا صديق لم يكن له في هذه الحياة سوى والده واقفا خلفه مثل شجرة ثابتة من الخارج لكنها متآكلة من الداخل. لقد أضحى أحمد مثل الغريب الذي لا يعرف وجهته.

المناديل الورقية كانت دوما بجانبه مثل لعبة يلهو بها وفي لحظات الحزن تمسح دموعه... بالنسبة لأحمد لم تكن المناديل الورقية مجرد سلعة يبيعها بل كانت شاهدة على صبره وتحمله لأثقال الحياة، كان بإمكان أحمد أن يستثمر مدخراته في شيء أكثر ربحا، لكنه اِختار شراء المناديل الورقية.

لكن لماذا؟ لأنها رافقته في حياته منذ نعومة أظافره وكانت كظله تلازمه دوما ..

حتى في لحظة تخرجه وعندما حقق حلمه وأصبح طبيبا كانت المناديل الورقية حاضرة معه.

بعد سنوات من التحديات والصعاب تحول أحمد الصغير إلى طبيب قلب مشهور وكان عمره 27 عاما فقط! كانت أول عملية قام بها هي عملية والده وتمت بنجاح بفضل الله أولا ثم بفضل إصراره ومهاراته.

لطالما كان أحمد معجبا بالطبيب الذي ساعده وساعد والده وكان مثله الأعلى والآن قد صار طبيبا مثله!

الآن صار أحمد يمتلك بيتا فخما، ومشفى خاصا به، وأصبح يساعد الآخرين.

ورغم كل التغيرات التي طرأت على حياته ظل أحمد متعلقا بالمناديل الورقية حتى أنه يقدمها لمرضاه وإن لم يكونوا بحاجة إليها!

قام أحمد ببناء مشفاه في مكان بيته القديم، على الرغم من الليالي الباردة والصعبة التي قضاها في ذلك البيت إلا أنه كان بمثابة مدرسة علمته الصبر وتحمل المشاق.

سمى أحمد مشفاه " مشفى الأمل" تكريما لوالدته الراحلة التي كان اِسمها "أمل" ولأن هذا المشفى سيكون بمثابة الشمس التي أشرقت بعد طول ظلام لم يكتفِ أحمد بإجراء العمليات الجراحية، بل تجاوز ذلك إذ أنه يبادر دائما لمساعدة المحتاجين والفقراء دون مقابل.

وبالرغم من أن أهل المنطقة التي بنى فيها المشفى ظلموه كثيرا وتجاهلوه واِحتقروه إلا أن أحمد سامحهم.

ظل أحمد وفيا لوالده ولمهنته متشبثا بتراب وطنه كالشجرة التي ترفض الإنحناء مهما عصفت بها الرياح، رغم أن كل ركن من أركانه يذكره بمرارة ما عاشه في السابق كالجراح التي تترك ندوبا لا تمحى أبدا.

ذات مرة... دار حديث بينه وبين صديقه " علي" عن فرصة عمل في " كندا" حيث توجد كل سبل الراحة والإستقرار من مشفى متطور ومجهز ومساعدين ينتظرون فقط إشارته للعمل، لكن أحمد أبى الفكرة بعناد قال علي:« لماذا ترفض هذه الفرصة التي يبحث عنها الكثيرون؟ ألا تريد أن تعيش؟ أن تنسى الألم الذي ذقته هنا؟»

أجابه أحمد بنبرة حادة:« أنا أنتمي إلى هذا المكان أتدري لماذا؟ هنا عشت لحظات الفرح والحزن هنا توفيت أمي رحمها الله وهذه الحياة رغم قساوتها إلا أنها علمتني دروسا لا تقدر بثمن هي من صنعت أحمد الذي أنا عليه الآن!»

ثم أضاف:« أتذكر كمال؟ كان يملك كل شيء، حتى أن بيته كان كالقصر لكنه خسر كل هذا بسبب اِستسلامه، أتعلم يا علي في يوم من الأيام جاء كمال إلى مشفاي وكات يده مصابة حيث جرح وهو يعمل في البناء، لم أتردد أبدا في مساعدته! في تلك اللحظة كان همي الوحيد هو معالجته بغض النظرعما فعله بي سابقا وهذا ما تعلمته من مهنة الطب!»

لم يجد علي مايقوله سوى أن يحي أحمد مؤكدا أن هذه المواقف هي من شيم الأشخاص ذوي القلوب النقية!

هذه قصة أحمد ذلك الفتى الذي حول الألم إلى أمل، هو ذاك الطبيب الذي تجاوز حدود النجاح، ظل متمسكا بقيمه ومبادئه، رغم الشهرة والثراء، بقى متصلا بجذوره، مشفى الأمل الذي بناه أصبح رمزا للعطاء والخير....

وفي الختام أود أن أقول الحمدلله الذي وقفني لكتابة هذه القصة المتواضعة ويسعدني اِخباركم بأن هذه القصة لم تنتهي لذا اِنتظروني في الجزء الثاني من قصة دموع على المناديل... وأتمنى أن تدعموني بآرائكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته